فلولا أنه سبحانه جعل هذا البيت لعبادته لانتهى وانتهت منهم السيادة فلا يقدرون أن يذهبوا إلى رحلة الشتاء ولا إلى رحلة الصيف ؛ ولذلك يقول سبحانه :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة قريش)

فسبحانه الذى جعل لهم السيادة والعزّ . وهو :

﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة قريش)

وجاء لهم بثمرات كل شيء ، وآمنهم من خوف حين تسير قوافلهم فى الشمال وفى الجنوب .

« أم لهم نصيب من الملك » فإذا كان لهم هذا النصيب ، فلا يأتون الناس نقيرا أى لا يعطونهم الشيء التافه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾

والحسد هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن ربنا قد اصطفاه واختاره للرسالة ،

ولذلك قال بعض منهم :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

إذن فالقرآن مقبول فى نظرهم ، لكن الذى يحزنهم أنه نزل على محمد ، وهذا من تغفيلهم ، وهو مثل تغفيل من قالوا :

﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأنفال)

لقد تمنوا الموت والقتل رميا بالحجارة من السماء ولم يتمنوا اتباع الحق ، وهذا قمة التغفيل الدال على أنها عصبية مجنونة ، ولذلك يقول الحق :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

وسبحانه يؤكد لنا أنه يختص برحمته من يشاء ، فلماذا الحسد إذن ؟ إنهم يحسدون الناس أن جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو أنهم استقبلوا ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم استقبالاً عادلاً بعين الإنصاف لوجدوا أن كل ما جاء به هو كلام جميل . من يتبعه تتجمل به حياته . وكان مقتضى من آتاهم الله من فضله علماً من الكتاب أن يبشروا برسول الله صلى الله عليه وسلم كما دعاهم إلى ذلك ما نزل عليهم فى كتابهم وأن يكونوا أول المصدقين به ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل كذبوا وصدوا عن سبيله وَفَضَّلوا عليه الكافرين الوثنيين . فقالوا إنهم أهدى من محمد سبيلاً .

والحق سبحانه وتعالى حين يتفضل على بعض خلقه بخصوصيات يجب سبحانه أن تتعدى الخصوصيات إلى خلق الله ؛ لأننا نعرف أن فى كل خلق من خلق الله خصوصية مواهب ، فإذا ما تفضل المتفضل بموهبته على الخلق تفضل بقية الخلق عليه بمواهبهم ، إذن فقد أخذ مواهب الجميع حين يعطى الجميع .

وهؤلاء قوم آتاهم الله نصيباً فبخلوا وضنّوا ، وليتهم ضنّوا على أمر يتعلق بهم ، بل على الأمر الذى وصلهم بالإله ، وهو أنهم أصحاب كتاب عرفوا عن الله منهجه ،

وعرفوا عن الله ترتيب مواكب رسله ، فيريد الحق سبحانه أن يقول لهم : أنتم أوتيتم نصيباً من الكتاب فلم تؤدوا حقه ، وأيضاً أنكم لو ملكتم الملك فإنكم لن تؤدوا حقه ، ولن تعطوا أحداً مقدار نقير وهو النقرة على ظهر النواة ، ولذلك قال :

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة النساء)

إذن فلا هم فى المعنويات والقيم معطون ، ولا هم فى الماديات معطون . فإذا كانوا قد بخلوا بما عندهم من القيم فهم أولى أن يبخلوا بما عندهم من المادة ، وبذلك صاروا قوماً لا خير فيهم أبداً .

ثم يوضح الحق : إذا كان هؤلاء قد أوتوا نصيباً من الكتاب يعرِّفهم سمات الرسول المقبل الخاتم فما الذى منعهم أن يؤمنوا به أولاً ويؤيدوه ؟ . لاشك أنه الحسد ، على الرغم من أنه صلى الله عليه وسلم جاء مصدقاً لما معهم ، إنهم لاشك حسدوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، والحسد لا يتأتى إلا عن قلب حاقد ، قلب متمرد على قسمة الله فى خلقه ؛ لأن الحسد كما قالوا : هو أن تتمنى زوال نعمة غيرك ، ويقابله « الغبطة » وهى أن تتمنى مثل ما لغيرك ، فغيرك يظل بنعمة الله عليه ، ولكنك تريد مثلها . وأنت إن أردت مثلها من الله فلا بد أن تغبطه ، والحق يقول :

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة النحل)

ولذلك يجب أن يكون الناس فى عطاء الله غير حاسدين وغير حاقدين . لكن بعض الناس ربما حسدوا غيرهم من الذين يعطيهم الأغنياء رغبة فى أن يكون ذلك لهم وحدهم فإنك إن كان عندك كَمٌّ من المال ثم اتصل بك قوم فى حاجة فأعطيتهم منه ، ربما قال الآخرون ممن يرغبون فى عطائك ويأملون فى خيرك : إنك ستنقص مما عندك بقدر ما تُعطى هؤلاء ؛ لأن ما عندك محدود ، ولكن هنا العطاء ممن لا ينفد ما عنده ، إذن فيعطيك ويعطى الآخرين ولا ينقص مما عنده شىء .

إذن فالغبطة أمر بديهى عند المؤمن ؛ لأنه يعلم أن عطاء الله لواحد لا يمنع أن

يعطى الآخر ، ولو أعطى سبحانه كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المخْيط إذا غمس فى البحر ، وذلك كما جاء فى الحديث القدسى : « يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخْيط إذا أدخل البحر »[1] .

« أم يحسدون الناس على ما آتاهم » ، فالحسد ـ كما عرفنا ـ هو : أن يتمنى إنسان زوال نعمة غيره ، هذا التمنى معناه أنك تكره أن تكون عند غيرك نعمة ، ولا تكره أن يكون عند غيرك نعمة إلا إذا كنت متمرداً على من يعطى النعم .

إن أول خطأ يقع فيه الحاسد هو : ردّه لقدر الله فى خلق الله ، وثانى ما يصيبه أنه قبل أن ينال المحسود بشرّ منه ؛ فقلبه يحترق حقداً . ولذلك قالوا : الحسد هو الذنب أو الجريمة التى تسبقها عقوبتها ؛ لأن كل جريمة تتأخر عقوبتها عنها إلا الحسد ، فقبل أن يرتكب الحاسد الحسد تناله العقوبة ؛ لأن الحقد يحرق قلبه وربما قال قائل : وما ذنب المحسود ؟ . . ونقول : إن الله جعل فى بعض خلقه داء يصيب الناس ، والحسد يصيبهم فى نعمهم وفى عافيتهم . وما ذنب المقتول حين يوجه القاتل مسدسه ليقتله به ؟ هذه مثل تلك . فالمسدس نعمة من نعم الله عند إنسان ليحمى نفسه به ، وليس له أن يستعمله فى باطل .

وهب أن الله سبحانه وتعالى خلق فى الإنسان شيئاً يكره النعمة عندغيره ، فلماذا لا يتذكر الإنسان حين يستقبل نعمة عند غيرك أن يقرنها بقوله: (ما شاء الله لا قوة إلا الله) . فلو قارنت كل نعمة عند غيرك بما شاء الله الذى لا قوة إلا به لرددت عن قلبك سم حقدك . إنك ساعة ترى نعمة عند غيرك وتقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فأنت تتذكر أن الإنسان لم يعط نفسه أى نعمة . إنما ربنا هو الذى أعطاه ، وسبحانه قادر على كل عطاء ، ومن الممكن أن يحسد الإنسان . لكن الذى يجد الحسد فى نفسه ويريد أن يطفئه ، عليه أن يردّ كل شىء إلى الله ، ومادام قد ردّ كل شىء إلى الله فقد عمل وقاية لنفسه من أن يكون حاسداً . ووقاية للنعمة عند غيره من أن تكون محسودة ، والحق سبحانه وتعالى يبين لنا ذلك فى قوله سبحانه :

---

(١) رواه مسلم فى باب تحريم الظلم ، ورواه أحمد .

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ ﴾

(سورة الفلق)

إذن فمن الممكن أن يمتلىء قلب أى واحد منا بالحقد على نعمة وبعد ذلك يحدث منها حسد ، وعلى كل واحد منا أن يمنع نفسه من أن يدخل تيار الحقد على قلبه ؛ لأن تيار الحقد يحدث تغييراً كيماوياً فى تكوين الإنسان ، وهذا التغير الكيماوى هو الذى يسبب التعب للإنسان ، وما يدرينا أن هذا التوتر الكيماوى من النعمة عند غيره تجعل فى نفس الإنسان وفى مادته تفاعلات ، وهذه التفاعلات يخرج منها إشعاع يذهب للمحسود فيقتله ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ ﴾

(سورة الفلق)

وعندما تستعيذ بالله من شر الحاسد الآ يصيبك ، قد يصيبك ، ولكن استعاذتك من شره تعنى أنه إن أصابك فعليك أن تسترجع ، فتقول : «إنا لله وإنا اليه راجعون» وتعلم أن ذلك خير لك ؛ فإن أصابك فى نعمة فاعلم أن هذه المصيبة فيها خير ، فالحاسد إذا أصابك فى شىء من نعم الله عليك ، فالشر هو أن تحرم الثواب عليها !! . . فالمصاب هو من حرم الثواب ، فإذا جاءت مصيبة لأى واحد وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون . . اللهم إنك ربى وإنك لا تحب لى إلاّ الخير لأنى صنعتك ولم تجر علىّ إلاّ الخير . . لكننى قد لا أستطيع أن أفهم ذلك الخير .

إن المسلم إذا صنع ذلك فالله سبحانه وتعالى يبين له فيما بعد أنها كانت خيراً له ، فإن أصابه فى ولده وقال : من يدرينى لعل ولدى الذى أماته الله كان سيفتننى فأكفر أو أسرق له وآخذ رشوة من أجله . لكن الله أخذه منى ومنع عنى ذلك الشرّ ، أو أن النعمة قد تطغينى ، وقد تجعلنى أتجبر على الناس ، وقد تجعلنى أتطاول وأعتدى على الخلق ، فيقول لى ربنا : امرض قليلا واهدأ . وهكذا نرى أن المصاب لا بد أن يتوقع الخير وأن يسترجع وأن يقول : لا بد أنه سيأتينى من الابتلاء خير ، وقد يقول قائل : نحن نقول :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾

(سورة الفلق)

نقرأ ونكرر هذه السورة ولم يعذنا الله من شرّ الحاسدين . ويحسدنا الحاسدون أيضاً !

نقول له : أنت لم تفهم معنى قوله : « من شرّ حاسد إذا حسد » . إنك تفهمه على أساس ألا يصيبك حسده ، لا . . إن حسده قد يصيبك ، لكن عليك أن تعرف قدر الله فى تلك الإصابة وتقول : يارب إنك أجريتها علىّ لخير عندك لى . فإن فعلتَ ذلك فقد كفيت شرّاً .

ونحن نعيش فى عالم نرى فيه أنه كلما ارتقت الدنيا فى العلم بيّن لنا ربنا آيات فى كونه وفى أسرار الوجود تقرب لنا كثيراً من المعانى ؛ فالذين يصنعون الآن أسلحة الفتك والتدمير ، كلما يلطف السلاح ويدق ولا يكون داخلاً تحت مرائى البصر ، كان عنيفاً ويختلف عن أسلحة الأزمنة القديمة حيث كان الإنسان يرمى آخر بحجر ، ثم آخر يرمى بمسدس ، ثم صار فى قدرة دولة أن تصنع قنبلة ذرية لا ينوب أى فرد منها إلا قدر رأس مسمار لكنها تقتل ، إذن فأسلحة الفتك كلما لطفت ـ أى دقت ـ عنفت . ونرى الآن الأسلحة كلها بالإشعاع ، والإشعاع ليس جرْماً ، وعمل الإشعاع نافذ لكن لايوجد له جرم ، وكما يقول الأطباء : نجرى العملية من غير أن نسيل دماً بوساطة الأشعة ، ومثال ذلك أشعة الليزر ، إذن فكلما دقّ السلاح كان عنيفاً وفتاكاً .

وهذا مثال يوضح ذلك : لنفرض أنك أردت أن تبنى لك قصراً فى خلاء ، ثم مرّ عليك صديق فقال : لماذا لم تضع لنوافذ الدور الأول حديداً ؟ تقول له : لماذا ؟ . فيقول لك : هنا سباع وذئاب . فتضع الحديد ليمنع الذئاب ، وآخر يمرّ على قصرك فيقول : إن فتحات الحديد واسعة وهنا توجد ثعابين كثيرة ، فتضيق الحديد . وثالث يقول : هناك بعوض يلسع ويحمل الميكروبات . فتضع سلكاً على النوافذ .

إذن فكلما دقّ العدو كان عنيفاً فيحتاج احتياطاً أكبر . ونحن نعلم أن الميكروب

الذى لا يُرى يأتى فيفتك بالناس ، فالآفة التى تصيب الناس كلما لطفت ، ـ أى دقت وصغرت ـ عنفت ، فلو كانت ضخمة فمن الممكن أن يدفعها الإنسان قليلاً قليلاً ، لكن عندما تصل إلى مرتبة من الدقة والصغر ، هنا لا يستطيع الإنسان أن يدفعها . وأفتك الميكروبات هى التى تدِق لدرجة أن الأطباء يقولون عن بعض الأمراض : لا نعرف لها فيروساً ؛ بمعنى أن هذا الفيروس المسبب للمرض صار دقيقاً جداً حتى عن معايير المجاهر .

إذن فما الذى يجعلنا نضيق ذرعاً بأن نقدر أن هناك شرارة من ميكروب تخرج من كيماوية الإنسان الحاقد الحاسد الذى تشقيه النعمة عند غيره، وشرارة الميكروب هذه مثل أشعة الليزر تتجه لشيء فتفتك به !! ما المانع من هذا ؟! إننا نفعل ذلك الآن ونسلط الأشعة على أى شيء ، والأشعة هى من أفتك الأسلحة فى زماننا ، ولماذا لانصدق أن كيماوية الحاسد عندما تهيج يتكون منها إشعاع يذهب إلى المحسود فيفتك به ؟ ومثلها مثل أى نعمة ينعمها ربنا عليك ، وبعد ذلك تستعملها فى الضرر . ومثال ذلك الرجل الذى عنده بعض من المال ؛ ومع ذلك يغلى حقداً على خصومه . فيشترى مسدساً أو بندقية ليقتلهم ؛ إنه يأخذ النعمة ويجعلها وسائل انتقام ، وهذا يأتى من هيجان الغريزة الداخلية المدبرة لانفعالات الإنسان .

إذن فهؤلاء القوم عندما جاء رسول الله مصدقاً بما عندهم ، ماالذى منعهم أن يصدقوه ؟ . لا شك أنهم حسدوه فى أن يأخذ هذه النعمة ، ونظروا إلى نعمة الرسالة على أنها مزية للرسل ، وهل كان ذلك صحيحا ؟ حقا إنها مزية للرسل ولكنها مع ذلك عملية شاقة عليهم ، والناس فى كل الأمم ـ ماعدا الأنبياء ـ يورثون أولادهم مالهم ، أما الأنبياء فلا يورثون أولادهم .

إنهم لم يأتوا ليأخذوا جاهاً ، أو ليستعلوا على الناس ، بل كلِّفوا بمتاعب جمة . إذن فأنتم تنظرون إلى السلطة التى أعطاكم الله إياها فى مسألة علم الدين . وتجعلونها أداة للترف والرفاهية وللعنجهية وللعظمة ، وحين يجىء رسول لكى ينفض عنكم ويخلصكم من هذه السيطرة ، ماذا تفعلون ؟ أنتم تحزنون ؛ لأنكم أقمتم لأنفسكم سلطة زمنية ولم تجعلوا أنفسكم فى خدمة القيم ، وأخذتم عظمة السيطرة فقط ، فلما جاء رسول يريد أن يزيل عنكم هذه السيطرة قلتم : لا . لن نتبعه . فإذا كنتم

تحسدون النبى عليه الصلاة والسلام على الرسالة وجعلتموها مسألة يُذَلِّله الله بها أو أنها تعطيه سيطرة ، فلماذا الحسد على سيدنا محمد وقد أعطى الله سيدنا إبراهيم الملك ، وأعطى لداود الملك ، وأعطى لسليمان الملك ، وأعطى ليوسف الملك ، فلماذا الحسد إذن عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يكرم الفرع الثانى من إبراهيم وهو إسماعيل عليه السلام ؟.

لقد كرم الله سبحانه الفرع الأول فى إسحاق وجاء من إسحاق يعقوب ، ومن يعقوب يوسف ، ثم جاء موسى وهارون ثم داود وسليمان ، كل هؤلاء قدكرموا ، وعندما يكرم سبحانه الفرع الثانى لإبراهيم وهو ذرية إسماعيل ويرسل منهم رسولاً ، تحزنون وتقفون هذا الموقف ؟

لماذا لا تنظرون إلى أن إسماعيل وفرعه أتى من ذرية إبراهيم ، ولماذا اعتبرتم الرسالة والنبوة نعمة مدللة ، ولم تنتبهوا إلى أنها عملية قاسية على الرسول ؟ لأن عليه أن يكون النموذج التطبيقى على نفسه وعلى آله ، ولا أحد من أهله يتمتع بذلك بل العكس ؛ فالنبى صلى الله عليه وسلم يقول : (إنا معشر الأنبياء لا نورث)[1] .

ويَحْرِم صلى الله عليه وسلم آل بيته من الزكاة . ويقول صلى الله عليه وسلم أيضا : (إن الصدقة لاتنبغى لآل محمد إنما هى أوساخ الناس)[2] .

وهكذا نرى أنه لم يكن يعمل لنفسه ولا لأولاده .

ويتابع الحق : « فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً » و« الكتاب » هو المنهج الذى ينزل من السماء ، و« الحكمة » هى الكلام الذى يقوله الرسول مفسراً به منهج الله ، ومع ذلك آتاهم الله الملك أيضاً . فسيدنا يوسف صار أميناً على خزائن الأرض ، وأصبح عزيز مصر ، وسيدنا داود ، وسيدنا سليمان آتاهما الله الملك مع النبوة . إذن ففيه نبوة وفيه ملك ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أعطاه

---

(١) رواه أحمد .

(٢) رواه مسلم .

ربنا النبوة ولم يعطه الملك فما وجه الحسد منكم له ؟!. ثم ماذا كان موقفكم من أنبيائكم الذين أعطاهم الله النبوة والملك ؟ يجيب الحق :

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾

وقوله سبحانه: « فمنهم من آمن به » . والمقصود الإيمان بما جاء فى منهج إبراهيم والرسل الذين جاءوا من بعده الذين آتاهم الله النبوة والملك ، أو «منهم» أى من أهل الكتاب الذين نتكلم عنهم من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم كعبدالله بن سلام ، وكعب الأحبار مثلا ، « ومنهم من صدّ عنه » أى أن منهم من كفر بمنهج الله ؛ لذلك يقول سبحانه بعدها : « وكفى بجهنم سعيراً » فكأن نتيجة الصدّ عن المنهج أنّه لا يأتى بعده إلا العذاب بجهنم ليصلوا بنارها ، وتكون مسعرة عليهم جزاءً على مافعلوا .

وبعد أن بين الحق سبحانه وتعالى موكب الرسل حينما أرسله الله على تتابع فى كونه ، جاء ليذكر الناس بالمنهج ، فالمنهج هو الأصل الأصيل فى مهمة آدم وذريته ؛ لأنه سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

وينقل آدم إلى ذريته معلوماته عن حركة الحياة وعن الحق وعن المنهج . إلا أن الله قدّر الغفلة فى خلقه عن منهجه ؛ فهذه المناهج تأتى دائماً ضد شهوات النفس الحمقاء العاجلة ، لكن لو نظرت إلى حقيقة المنهج الإلهى فأنت تجده يعطى النفس شهوات لكنها مُعلاة .

مثال ذلك عندما يقول :

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾

(من الآية ٩ سورة الحشر)

وكل واحد عنده أشياء ويحتاج إليها ، لكنه يجد أخاه المؤمن يحتاج إليها أكثر منه فيؤثره على نفسه ، أهو يفضله عن نفسه ؟ لا ؛ لكنه يعطى هذا الشيء القليل فى الفانية كى يأخذه فى الباقية ، فأخذ شهوة نفسه لكن بشهوة معلاة ، والذى قلنا له : غض طرفك عن محارم غيرك . ظاهر هذا الأمر أننا نحجبه عن شهوة يشتهيها ، لكننا ساعة نحجبك عن شهوة تشتهيها فى حرام الفانية ، نريد أن نحقق لك شهوة فى حلال الخالدة . فأيهما أعشق للجَمَال ؟ الذى ينظر بتفحص للمرأة الجميلة وهى تسير ، أم الذى يغض عينه عنها ؟ الأعشق للجمال هو الذى غض بصره .

إن الدين لم يأت إلا ضد النفس الحمقاء التى تريد عاجل الأمر وإن كان تافهاً . ويوضح له : كن للأجل ومعه ؛ لأنه يبقى فلا يتركك ولا تتركه ، أما أى شهوة تأخذها فى هذه الدنيا فإما أن تتركها وإما أن تتركك ، لكن فى الآخرة لا تتركها ولا تتركك .

لقد عرف الصالحون الورعون كيف يستفيدون ، لكنّ الآخرين هم الحمقى الذين لم يستفيدوا ، فالحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أن الحسرة تكون لمن أراح نفسه بشهوة عاجلة ثم أعقبها العذاب الآجل المقيم ، فهذه هى الخيبة الحقة ، فالدنيا دار الأغيار ، يأتى للإنسان فيها ما يؤلمه وما يسره ، وليس فيها دوام حال أبداً ؛ لأنها دنيا الأغيار ، ومادامت دنيا الأغيار فيكون كل شيء فيها متغيرًا . . ومادام كل شيء فيها متغيرًا . إذن فالذى فى نعمة قد يصيبه شيء من الضر ، والذى فى قوة قد يصيبه شيء من الضعف ، والذى فى ضعف قد تأتيه قوة ، وإلا لو ظل الضعيف ضعيفاً وظل القوى قوياً لما كانت الدنيا أغياراً .

ولذلك يقولون : احذر أن تريد من الله أن يتم عليك نعمته كلها ؛ لأنها لو تمت لك النعمة كلها وأنت فى دارالأغيار فانتظر الموت ؛ فتمام النعمة هو صعود لأعلى

منطقة فى الجبل وأنت فى دار الأغيار ، فهل تظل على القمة ؟ لا ، بل لابد أن تنزل ، فإياك أن تُسرَّ عندما تبلغ المسألة ذروتها ؛ لأنه سبحانه وتعالى يوضح : إنكم لابد أن تأخذوا هذه الدنيا على أنها معبر ، والذى يتعب الناس أنهم لا يحددون الغاية البعيدة ، بل إنهم يحددون الغايات القريبة .

إن من حمق بعض الناس أن يحزن الواحد منهم على فراق حبيب أو قريب له ، وخذها بالمنطق : ما غايتنا جميعاً ؟ إنها الموت ونعود إلى خالقنا . وهل عندما نعود إلى خالقنا نحزن ؟ لا ، بل يجب أن نسر ؛ لأننا فى الدنيا مع الأسباب ، أما بعد أن ننتقل إلى الآخرة فنكون مع المسبب . ففى الدنيا تكون مع النعمة وستصبح بعد ذلك مع المنعم ، فما يحزنك فى هذا ؟ إن هذا يحزنك ساعة أن كنت مع النعمة ولم تُراع المنعم ، لكن لو كنت مع النعمة وراعيت المنعمَ لسررت أنك ذاهب للمنعم .

وإن كانت المسألة هى أن نصل إلى المنعم الحق ونكون فى حضانته فلماذا الحزن إذن ؟ ومن الحمق أن بعض الناس لا تعامل الحق سبحانه وتعالى كما يعاملون أنفسهم .

هب أن إنساناً من غايته أن يخرج من أسوان إلى القاهرة ، إذن فالقاهرة هى الغاية . ثم جاء واحد وقال له : سنذهب سيراً على الأقدام ، وقال الآخر : أنا سآتى بمطايا حسنة نركبها . وقال ثالث : سآتى بعربة ، وقال رابع : سنسافر بطائرة وقال خامس : سنسافر بصاروخ ، إذن فكل وسيلة تقرب من الغاية تكون محمودة ، ومادامت غايتنا أن نعود إلى الحق فلماذا نحزن عندما يموت واحد منا ؟ أنت - إذن - تحزن على نفسك ولا تحزن على من مات ، إن الذى يموت بعد أن يرعى حق الله فى الدنيا يكون مسروراً لأنه فى حضانة الحق ومع المنعم ، وأنت مع النعمة الموقوتة إنّه يسخر منك لأنك حزنت ، ويقول : انظر إلى الساذج الغافل ، كان يريدنى أن أبقى مع الأسباب وأترك المسبب !

إننا نجد الذين يحزنون على أحبائهم لا يرونهم فى المنام أبداً ؛ لأن الميت لا تأتى روحه لزيارة من حزن لأنه ذهب إلى المنعم ، وعلى الناس أن تدرك الغاية من الوجود

بأن تكون مع أسباب الحق فى الدنيا ثم تصير مع الحق ، والموت هو النقلة التى تنقلك من الأسباب إلى المسبب ، فما الذى يحزنك فى هذا ؟

نحن نقصِّر عليك المسافة . . فبدلاً من أن تقابلك عقبات الطريق ، وقد تنجح أو لا تنجح ، وبعضهم يقول : مات وهو صغير ولم ير الدنيا ، نقول لهم : وهل هذه تكون خيرًا له أو لا ؟ أنت مثلاً كبرت وقد تكون مقترفاً للمعاصى ؛ فلعل الله أخذ الصغير حتى لا يعرضه للتجربة ، ضع المسألة أمامك واجعلها حقيقة .

عن الحارث بن مالك الأنصارى أنه مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : كيف أصبحت يا حارث ؟ فقال : أصبحت مؤمنا حقا . قال : « انظر ما تقول ؛ فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا ، وكأنى انظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغوْن[1] فيها فقال : « يا حارث عرفت فالزم ، ثلاثا »[2] .

ولنا العبرة فى سيدنا حذيفة ـ رضى الله عنه ـ حينما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : كيف أصبحت ؟ أى كيف حالك الإيمانى ؟ قال حذيفة : يا رسول الله ، عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها ـ أى أن الذهب تساوى مع الحصى ، هذه هى مسألة الدنيا ـ وأضاف حذيفة : وكأنى أنظر أهل الجنة فى الجنة ينعمون ، وإلى أهل النار فى النار يعذبون

وساعة لا تغيب عن بال سيدنا الحارث صورة الآخرة ، فهو يسير فى الحياة مستقيما . . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « عرفت فالزم » .

الحق سبحانه وتعالى حين يذكر لنا بعض الأحكام يذكر لنا أيضاً خبر بعض الناس الذين يتمردون على الأحكام ، ثم يذكرنا بحكاية الجنة والنار ؛ ولذلك يقول لنا :

---

(١) يتضاغون : يصيحون من الألم

(٢) رواه الطبرانى .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾

و« نصليهم » من الاصطلاء ، قد يقول قائل : مادام يصلى النار وكلنا يعرف أن نار الدنيا حين تحرق شيئاً ينتهى إلى عدم ، وحين ينتهى إلى عدم إذن فلا يوجد ألم ! ونقول : لتنتبه إلى أن الحق سبحانه وتعالى يقول فى هذا الأمر « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » . . إذن فالعذاب ليس كنار الدنيا ، لأن نار الدنيا تحرق وتنتهى المسألة . أما نار الآخرة فإنها عذاب سرمدى دائم مكرر « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » . . فإذا ما حرّقت الجلود فإن جلوداً أخرى ستأتى ، أهى عين الأولى أم غيرها ؟ وحتى أوضح ذلك : أنت عندما يكون عندك خاتم مثلاً ، ثم تقول : أنا صنعت من الخاتم خاتماً آخر ، فالمادة واحدة أيضاً ، فهل التعذيب للجلود أو للأعضاء ؟ إن العذاب دائماً للنفس الواعية ، بدليل أن الإنسان قد يصيبه ورم فيه بعض الصديد « دُمّل » يتعبه ولا يقدر على ألمه . . وبعد ذلك يغفل فينام ، بمجرد أن ينام فلا ألم . لكن عندما يستيقظ يتألم من جديد .

إذن فالألم ليس للعضو بل للنفس الواعية ، بدليل أننا عندما ارتقينا فى الطب ، قلنا إن النفس الواعية نستطيع أن نخدرها بحيث يحدث الألم ولا تشعر به ، ويفتح « الدّمل » بالمشرط ولا يحس صاحبه بأى ألم . وهكذا تجد أن الجلود والأعضاء ليس لها شأن بالعذاب ، إنما هى موصلة للمعذب ، والمعذَّب هى النفس الواعية . . بدليل أنها ستشهد علينا يوم القيامة . . تشهد الجلود والجوارح ، وستكون آلة لتوصيل العذاب . . ومسرورة لأنها توصل لهم العذاب .

إنه نظام إلهى فلا تتعجبوا من القرآن ، فإن العلم كلّما تقدم هدانا إلى شىء من آيات الله فى الكون . أنتم ـ الآن ـ تخدرون النفس الواعية وتشقون الجسد بالمشارط

كما يحلو لكم فلا يحدث له ألم ، وعرفتم أن الألم ليس للعضو ، إنما الألم للنفس الواعية ، إذن فكل الجوارح هي آلات توصِّل الألم للنفس الواعية ، وتكون مسرورة ؛ لأن النفس الواعية تعذب ، وهذه يشبهونها - مثلا - بواحد عنده « حكة » في جلده ، فيهرش ، والهرش يسيل دمه فيكون مستلذاً .

إذن فقوله : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » أي أن الجلود تبدل وتنشأ جلود أخرى من نفس مادتها توصل العذاب للنفس الواعية ، وهكذا .

« إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » . نحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى أنزل كتاباً هو القرآن ، وجعله معجزة ومنهجا ، وهذه هي الميزة التي امتاز بها الإسلام . فمنهج الإسلام هو عين المعجزة ، وكل رسول من الرسل كان منهجه شيئا ومعجزته كانت شيئا آخر .

إن سيدنا موسى منهجه التوراة ومعجزته : العصا ، وسيدنا عيسى منهجه : الإنجيل ، ومعجزته : إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله ، لكن معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت القرآن ؛ لأن دينه سيكون الامتداد النهائي لآخر الدنيا ، ولذلك جعل الله منهجه هو عين معجزته ، لتكون المعجزة دليلاً على صدق المنهج في أي وقت ، ولا يستطيع واحد من أتباع أي نبي سابق على رسول الله أن يقول : إن معجزة الرسول الذي أتبعه هي منهجه ؛ لأن معجزات الرسل السابقين على رسول الله كانت عمليات كونية انتهت مثل عود كبريت احترق ، فمن رآه رآه وانتهى ، لكن المسلم يستطيع أن يقف ويعلن بملء فيه : إنَّ محمداً رسول الله وصادق ، وتلك معجزته . فمعجزة محمد صلى الله عليه وسلم باقية بقاءً أبدياً ، ومتصلة به أبداً . أما معجزة كل رسول سبق رسول الله فقد أدت مهمتها لمن رآها وانتهت ، وانفصلت معجزة كل رسول سابق على رسول الله عن منهجه .

والمنهج القرآني فيه أحكام ، والأحكام معناها ؛ افعل كذا ، ولا تفعل كذا . وهي واضحة كل الوضوح منذ أن أنزل الله القرآن على رسوله وحتى تقوم الساعة . ومن فعل مطلوب الأحكام يثاب ، ومن لم يفعله يعاقب . وكل الناس سواسية في مطلوب الأحكام إلى أن تقوم الساعة .

أما آيات الله الكونية التي لا تتأثر . . فأى فائدة للإنسان إن عرفها أو لم يعرفها : فقد طمرها الله وسترها فى القرآن مع إشارة إليها ، لأن العقل المعاصر لنزول الكتاب لم يكن قادرا على استيعابها فى زمن الرسالة . ولو أن القرآن جاء بآية واضحة تقول : إن الأرض كروية وتدور ، بالله ماذا كان المعاصرون لرسول الله يقولون ؟ إن بعضاً من البشر الآن يكذبون ذلك ، فما بالنا بالبشر المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذين لو قال لهم رسول الله ذلك لانصرفوا عن اتباع ما جاء به .

لقد كانوا يستفيدون من كروية الأرض ، مثلما يستفيد منها الفلاح أو البدوى ، ومثلما يستفيد الناس الآن الذين لم يدرسوا الكهرباء برؤية التليفزيون وضوء المصباح الكهربائى وغير ذلك من الاستخدامات، دون معرفة علمية بتفاصيل ذلك ، إنّ الشمس تسطع على الدنيا فيتبخر الماء من الأنهار والمحيطات والبحار ليصير سحاباً ، ثم ينزل المطر من السحاب . وكل هذه الآيات الكونية لم يعط الله أسرارها إلا بقدر ما تتسع العقول ، وترك فى كتابه ما يدل على ما يمكن أن تنتهى إليه العقول الطموحة بالبحث العلمى .

وعندما نتعرف نحن ـ المسلمين ـ على اكتشاف علمى جديد فى الكون ، نقول : إن القرآن قد أشار له ، لكن قبل ذلك لا يصح أن نقول ذلك حتى لا يكذب الناس هذا الكتاب المعجز ، فسبحانه القائل :

﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة يونس)

لو أن القرآن قال : إن كل شيء فى الوجود يتكاثر ، وفيه موجب وفيه سالب ، ذكر وأنثى ، أكانوا يصدقون ذلك ؟ . لا ؛ لأنهم كانوا لا يعرفون الذكر والأنثى إلا فى الرجل والمرأة ، ويعرفون ذلك فى الحيوانات ؛ وأيضاً فى بعض النباتات مثل النخل ، لكن هناك نباتات كثيرة لا يعرفون حكاية التكاثر فيها ، ومثال ذلك القمح الذى نزرعه ونأكله ، وكذلك الذرة ، لم يكونوا عارفين بأن عنصر الذكورة يوجد فى « الشواشى » العليا فى كوز الذرة وأن الهواء يضرب تلك الشواشى فتنزل منها حبوب اللقاح فيخرج الحب ، ولذلك نجد الزارع الذكى هو الذى يفتح «كوز الذرة» من أعلاه قليلاً حتى يتيح لحبوب اللقاح أن تصل إلى موقعها . وقد يفتح الفلاح أحد « كيزان الذرة » فيجد حبة ميتة وسط الحبوب المتراصة ويكتشف أنها حبة ليس لها خيط أى لم تتصل بحبوب اللقاح وهو ما يقولون عنه فى الريف « سنة عجوز » .

إذن فكل تكاثر له ذكورة وأنوثة ، ولذلك يقول ربنا :

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة يس)

وكنا نعرف الأزواج فى الأنفس ، ثم عرفناها فى النبات ، وجاء الحق بـ « مما لا يَعلمون » لِتُدخل كل شىء ، وتكشف الموجب والسالب فى الكهرباء ، وصرنا نعرف أن كل كائن فيه ذكر وأنثى ، وكلما تقدم العلم فهو يشرح الآيات الكونية .

ومن رحمة الحق سبحانه بعقول الأمة المكلَّفة برسالة محمد لم يشأ أن يجعل نواميسه فى الكون واضحة صريحة حتى لا تقف العقول فيها وتعجز عن فهمها ، وخاصة أن الكتاب واجه أمّة أمّيَّة ؛ ليست لها ثقافة . وهب أنه واجه العالم المعاصر ، إن هناك قضايا فى الكون لا يعلمها العالم المعاصر ، فلو أن القرآن تعرض لها بصراحة لكانت سبباً من الأسباب التى تصرف الناس عن الكتاب . والقرآن جاء كتاب منهج ، والمعجزة أمر جاء لتأييد المنهج ، فلم يشأ أن يجعل من المعجزة ما يعوق عن المنهج ، لكنه ترك فى الكون طموحات للعقل المخلوق لله والمادة الكونية المخلوقة لله ، وكل يوم يكتشف العقل البشرى أشياء ، وهذا الاكتشاف لا يأتى من فراغ ، بل يأتى من أشياء موجودة .

إذن فلو رددت أدق أقضية العلم التى يصل إليها العقل المعاصر ، ونسبتها فى الكون لرجعت إلى الأمر البديهى . فلا يوجد صاحب عقل ابتكر أو جاء بحاجة جديدة ، إنما هو أعمل عقله فى موجود فاستنبط من مقدمات الموجود قضية معدومة ، ثم أصبحت القضية المعدومة مقدمة معلومة ليستنبط منها من يجىء بعد ذلك . ولذلك فالعلماء عادة قوم يغلبهم طابع التهذيب عندما يقولون : اكتشفنا الأمر الفلانى ، يعنى كأنه كان موجوداً .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطى لنا فكرة تقرب لنا الفهم ، فنحن عندما كنا نتعلم الهندسة مثلاً ؛ عرفنا أن الهندسة مكونة من نظريات ، تبدأ من نظرية « واحد » ،

وتنتهى إلى ما لا نهاية ، وحين جاء لنا مدرس ليبرهن لنا على نظرية « مائة » ، استخدم فى البرهان على ذلك النظرية التسع والتسعين ، وعندما كان يبرهن على النظرية « التسع والتسعين » استعمل ما قبلها .

إذن فكل برهان على نظرية يستند إلى ما قبلها ، والعقل الواعى المفكر المستنبط هو الذى يرتب المقدمات ويستخلص منها النتائج . وكل شىء فى الكون يشترك فيه كل الناس . لكن العقل الذى يرتب ويستنبط يخيل إليه وإلى الناس أنه جاء بجديد ، وهو لم يأت بجديد . بل ولَّد من الموجود جديداً ، مثال ذلك الطفل عندما يولد من أبويه ، هل هما جاءا به من عدم ؟ لا ، بل جاء الولد من تزاوج ، وعندما نسلسل الأمر نصل إلى آدم ، فمن الذى جاء بآدم ؟. إنه الله .

إذن فالبديهيات التى فى الكون هى خميرة كل علم تقدمى وهى من صنع الله الذى أتقن كل شىء صنعاً ، وكل نظرية مهما كانت معقدة فى الكون منشؤها من الأمر البديهى ، مثال ذلك البخار ؛ عندما اكتشفوه وقبل أن يسيّروا به الآلات ماذا حدث ؟. كان هناك من يجلس فالتفت فوجد الإناء الذى به الماء يغلى ثم وجد غطاء الإناء يرتفع وينخفض ، وعندما تعرف على السرّ ، اكتشف أن كل بخار يستطيع أن يعطى قوة دافعة ، وبذلك بدأ عصر البخار . إذن فهو ذكى ، وقد أخذ اكتشافه من بديهية موجودة فى الكون ، فإياك أن تغتر وتقول : إن العقل هو الذى اخترع ، ولكن العقل عمل بالجهد فى مطمورات الله فى الوجود ، ورتب ثم أخرج الاكتشاف .

لذلك فعندما يبتكر العقل البشرى شيئاً جديداً نقول له : أنت لم تبتكر ، بل اكتشفت فقط ، والحق سبحانه وتعالى يترك هذه العملية فى الوجود . ويقول :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

والبشرية عندما تكتشف شيئاً جديداً ، نقول لهم : القرآن مسّها وجاء بها ، فيقولون : عجباً هل فعل القرآن ذلك منذ أربعة عشر قرناً ، على الرغم من أنه نزل

ليخاطب أمة أمية ، وجاء على لسان رسول أمّى . ونقول : نعم .

والآية التى نحن بصددها فيها هذا :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النساء)

والجلود والأحاسيس شرحناها من قبل ، ونظرية « الحسّ » - كما نعرف - شغلت العلماء الماديين ، وأرادوا أن يعرفوا كيف نحسّ ؟ منهم من قال : نحن نحسّ بالمخ . نقول لهم : لكن هناك مسائل لا تصل للمخ ونحس بها ، بدليل أنه عندما يأتى واحد أمام عينى ويوجه أصبعه ليفتحها ويثقبها فقبلما يصل أصبعه أغلق عينى أى أن شيئاً لم يصل للمخ حتى أحسّ . وبعض العلماء قال : إن الإحساس يتم عن طريق النخاع الشوكى والحركة العكسية ، ثم انتهوا إلى أن الإحساس إنما ينشأ بشعيرات حسية منبطحة مع الجلد ؛ بدليل أنك عندما تأخذ حقنة فى العضل ، فالحقنة فيها إبرة ، ويكون الألم مثل لدغة البرغوث يحدث بمجرد ما تنفذ الإبرة من الجلد ، وبعد ذلك لا تحس .

إذن فمركز الإحساس فى الإنسان هو الشعيرات الحسية المنبطحة على الجلد ، بدليل أن ربنا أوضح : أنه عندما يحترق الجلد يمتنع الإحساس ، فأنا أبدل لهم الجلد ليستمر الإحساس : « كلما نضجت جلودهم » أى صارت محترقة احتراقا تاما وتعطلت عن الإحساس بالألم ، آتيهم بجلد آخر لأديم عليهم العذاب؛ لأنه هو الذى سيوصل للنفس الواعية فتتألم ، إذن فالآية مسّت قضية علمية معملية ، لو أن القرآن تعرض لها بصراحة وجاء بصورة فى الإحساس تقول : يا بنى آدم محلّ الإحساس عندكم الجلد ، لما فهموا شيئاً . لكنه تركها لتنضج فى العقول على مهل .

« كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » . فتكون علّة التبديل للجلود التى أحرقت بجلود جديدة كى يدوم العذاب .ويذيل الحق الآية : « إن الله كان عزيزا حكيما » والعزيز : هو الذى لا يُغلب ولا تَقدر أن تحتاط من أنه يهزمك أبداً ، فقد يقول كافر : لقد تلذذنا بالمعصية مرة لمدة خمس دقائق ، ومرة لمدة

ساعتين فما يضيرنى أن يحترق جلدى وتنتهى المسألة !! نقول له : لا.إن الذى يعذبك لا يُغلب فسوف يديم عليك العذاب بأن يبدل لك الجلد بجلد آخر ، وسبحانه حكيم.فالمسألة ليست مسألة جبروت يستعمله ، لا . هو يستعمل جبروته بعدالة .

وبعد أن جاء بالعذاب أو بالجزاء المناسب لمن رفضوا الإيمان ، لم ينس المقابل؛ لكى يكون البيان للغايتين : غاية الملتزم وغاية المنحرف . ولذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

وفى هذه الآية يصف الحق ثواب الفئة المقابلة للفئة السابقة وهم الذين آمنوا ، ونعلم أن آخر موكب من مواكب الرسالة هو رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . إذن فأمة سيدنا محمد هى أقرب الأمم إلى لقاء الله . فالأمم من أيام آدم أخذت زمناً طويلاً ، لكننا نحن المسلمين قريبون ، ولذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

« بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين »[1] ، .

ولذلك لم يقل الحق فى هذه الآية : سوف ندخلهم . بل قال : « سندخلهم » ، أما مع الآخرين فاستخدم سبحانه « سوف » لأنها بعيدة ، أو أن هذا كناية وإشارة من الله لإمهال الكفار ليتوبوا ، وعندما يقرب لنا سبحانه المسافة فإنه يغرينا بالطاعة ، المسألة ليست بعيدة ، بل قريبة ، لذلك يعبر عنها : « سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » .

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم والترمذى عن أنس .